

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (غزوة خيبر) : ولما رجع ﷺ إلى المدينة أقام بها إلى المحرم من السنة السابعة ،
فخرج في آخره إلى خيبر ، ونُقل عن مالك بن أنس رحمه الله : أن فتح خيبر كان في سنة
ست ، والجمهور على أنها في سنة سبع ، وأما ابن حزم فعنه أنها في سنة ست بلا شك ،
وذلك بناء على اصطلاحه ، وهو أنه يرى أن أول السنين الهجرية شهر ربيع الأول الذي
قدم فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، ولكن لم يُتابع عليه ، إذ الجمهور على أن
أول التاريخ من محرم تلك السنة ، وكان أول من أرخ بذلك يعلى بن أمية باليمن كما
رواه الإمام أحمد بن حنبل عنه بإسناد صحيح إليه ، وقيل : عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك
في سنة ست عشرة كما بُسط ذلك في موضع آخر . فسار ﷺ إليها واستخلف على
المدينة خيلة ابن عبد الله الليثي ، فلما انتهى إليها حاصرها حصناً حصناً يفتحه الله ﷻ
عليه ويغنمه حتى استكملها ﷺ وخمسها ، وقسم نصفها بين المسلمين ، وكان جملتهم من
حضر الحديبية فقط ، وأرصد النصف الآخر لمصالحه ولما ينوبه من أمر المسلمين .
واستعمل اليهود الذين كانوا فيها بعد ما سألوا ذلك عوضاً عما كان صالحهم عليه من
الجلاء على أن يعملوها ، ولرسول الله ﷺ النصف مما يخرج منها من ثمر أو زرع ، وقد
اصطفى ﷺ من غنائمها صفية بنت حيي بن أخطب لنفسه ، فأسلمت فأعتقها وتزوجها
وبنى بها في طريق المدينة بعدما حلت] .

هذا فصلٌ عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في كتابه الفصول في سيرة الرسول ﷺ ، وهو من جملة الفصول المتعلقة بمغازي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، والحديث في هذا الفصل عن غزوة خيبر ، والشأن في هذه الغزوة كما قال جماعة من المفسرين : هي وعدٌ وعده الله ﷻ نبيه والمؤمنين ، وقد مرّ معنا الغم الذي لحق الصحابة رضي الله عنهم ، مما كان في صلح الحديبية ولكن الله ﷻ جعل فيه خيراً كثيراً ، ففي أثناء هذه الأحداث نزل على النبي عليه الصلاة والسلام سورة الفتح كاملة وفيها من البشارات العظيمة والثناء الكريم العاطر على النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام ، وفي الفتح آيٌ كثيرة تمدح الصحابة رضي الله عنهم وتبين مآثرهم ومناقبهم وخصالهم الكريمة ، وفي هذا السياق وعد الله ﷻ المؤمنين موعدة كريمة فقال ﷻ : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح: ٢٠] ؛ قوله ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ : أي صلح الحديبية ، وقوله ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ قال غير واحد من المفسرين : هي المغام التي منّ الله ﷻ بها على المؤمنين في غزوة خيبر . ولهذا كان للمؤمنين من المغام في فتح خيبر الشيء الكثير منّ الله ﷻ عليهم به ، بل قال بعض الصحابة كما جاء في صحيح البخاري وغيره : ((مَا شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا حَيْبَرَ)) يعني ممّا يسّره الله ﷻ وأكرم به عباده في غزوة خيبر من المغام الكثيرة ، حتى إن المهاجرين رضي الله عنهم بعد هذه الغزوة بعد أن رجعوا إلى المدينة النبوية أعادوا المنائح التي كانت عندهم والتي منحهم إياها الأنصار لأنهم أصبح لهم نخيل وأصبحوا يجنون من نخيلهم التمور ويشبعون منها ويبيعون؛ فحصلوا خيراً كثيراً ومغام كثيرة .

هذه الغزوة كما ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة . وكنا عرفنا أن صلح الحديبية كان في آخر السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة من تلك السنة ، فلم يمكث عليه الصلاة والسلام كثيراً عندما جاء إلى المدينة ، بل كما قال ابن كثير سابقاً : ((فكان مدة إقامته بالحديبية نحواً من العشرين ليلة ، ولما رجع ﷺ إلى

المدينة أقام بها إلى المحرم من السنة السابعة فخرج في آخره - أي في آخر المحرم - إلى خيبر)) ؛ أي أن مكثه بعد الحديبية لم يكن طويلاً حتى خرج ﷺ بأصحابه إلى خيبر .

قال : ((وثقل عن مالك ابن أنس أن فتح خيبر كان في سنة ست والجمهور على أنه في سنة سبع)) والذي تعضده الأدلة وتشهد له الدلائل وهو قول جمهور أهل المغازي والسير أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة من الهجرة في أولها في آخر شهر محرم الذي هو أول شهر في السنة .

قال : ((وأما ابن حزم فعنه أنها سنة ست بلا شك)) ؛ لكن هذا مبني على اصطلاحه في بدء التاريخ الهجري، فهو يرى أن التاريخ الهجري لا يبدأ من المحرم كما هو قول جماهير أهل العلم ، وإنما يرى أن التاريخ الهجري يبدأ من الربيع الأول وهو وقت مهاجر النبي ﷺ الفعلي إلى المدينة ، ولم يعتبر ابن حزم البدايات التي كانت للهجرة وتقدمة النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه إلى المدينة حيث هاجروا قبله ، واعتبر أن التاريخ الهجري يبدأ من ربيع الأول ، فبناء على قوله إذا كان التاريخ الهجري يبدأ بربيع الأول فمحرم سيكون في آخر السنة السادسة من الهجرة ، لكن قوله على خلاف قول الجمهور في بدء التاريخ الهجري .

قال : ((وهو يرى أن أول السنين الهجرية شهر ربيع الأول الذي قدم فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، ولكن لم يتابع عليه)) ؛ يعني هذا القول انفرد به ولم يتابعه عليه أحد من أهل العلم ، إذ الجمهور على أن أول التاريخ من محرم تلك السنة ، وإذا علم أن التاريخ يبدأ من محرم تلك السنة فيكون هذا المحرم الذي خرج عليه الصلاة والسلام في آخره إلى خيبر في بدء السنة السابعة للهجرة .

قال : ((وكان أول من أرخ بذلك يعلى بن أمية باليمن كما رواه الإمام أحمد ابن حنبل عنه بإسناد صحيح إليه)) ؛ وكذا قال أيضاً الحافظ ابن حجر أن الإسناد صحيح ولكن فيه انقطاع بين عمر ابن دينار ويعلى بن أمية ، وقيل إن أول من بدأ التاريخ بهذا وهو

مشهور ((عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في سنة ستة عشرة كما بسط ذلك في موضع آخر ((؛ والحافظ ابن كثير رحمه الله أشار إلى ذلك إشارة لمناسبة المقام لذلك ؛ حيث أشار إلى قول ابن حزم الذي خالف فيه قول الجمهور في بدء التاريخ الهجري وأنه على رأيه يبدأ في ربيع الأول .

قال رحمه الله تعالى : ((فصار إليها)) ؛ أي النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام ساروا إلى خيبر .

قال : ((واستخلف على المدينة نميلة ابن عبد الله الليثي)) ؛ وهذا في قول ابن إسحاق رحمه الله تعالى في مغازيه ، وقيل إن الذي استُخلف هو سباع بن عرفطة رضي الله عنه وهو أصح ، وقد جاء في الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه لما وصل إلى المدينة - وكان وصوله حين خرج النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام إلى خيبر - وجد سباع ابن عرفطة يؤم الناس فصلى معه ، ثم إن سباع ابن عرفطة زوّده بعد الصلاة بما يحتاج للحق بالنبي عليه الصلاة والسلام إلى خيبر وكان وصوله إلى النبي ﷺ بعد فتحها ، وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يُسهِم له مع الصحابة فأسهم له صلوات الله وسلامه عليه ، وسيأتي الحديث بذلك .

قال : ((فلما انتهى إليها حاصرها حصناً حصناً)) ؛ مما كانت تمتاز به خيبر في ذلك الوقت أنّها مليئة بالحصون المنيعة والتي بناها اليهود وكانوا يظنون أن حصونهم تمنعهم ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ [الحشر: ٢] ، فكانوا يظنون أن هذه الحصون تحمي وتمنع وتقي ، ولكن إذا جاء أمر الله ﷻ بطل كل ما يتعلق به الإنسان ﴿ أَيْمًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [آل عمران: ٧٨] فكانت تمتاز خيبر في ذلك الوقت بحصون منيعة جداً لها أسماء معروفة عندهم ، وكانت أيضاً تتفاوت في مناعتها وقوتها ومن أمتع تلك الحصون حصن مرحب ، وهو رجل يهودي أيضاً معروف ببسالته وشدته وقوته في المبارزة والقتال ، وكانت الطرق التي تؤدي إلى خيبر من ضمنها

طريق يُعرف بطريق مرحب وهو الطريق الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاء إلى خيبر ، وقد كان من حكمته عليه الصلاة والسلام أن جاء إلى خيبر من جهة الشام ، حتى يمنع المعونة من غطفان وكانوا يعاضدون اليهود ، وقد استنجد بهم اليهود في ذلك الوقت فخرجوا بالفعل لمعاونة اليهود في خيبر ، لكن لما خرجوا حصل أن كأنهم سمعوا جلبة أو صوتاً في مساكنهم فرجعوا خوفاً على النساء والذرية ، فكفَّ ووقى الله ﷺ شرهم . فكان النبي عليه الصلاة والسلام أتى إلى خيبر ولكن فيها هذه الحصون المنيعة فحاصرها عليه الصلاة والسلام وطال الحصار ، وفي ليلة من ليالي الحصار وعندما اشتد على الصحابة رضي الله عنهم الحصار واشتد بهم التعب - وكانوا في العراء وليس عندهم شيء ، وهؤلاء في الحصون وعندهم الطعام والشراب والغذاء - قال عليه الصلاة والسلام : ((لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)) وهذه بشارة ، أعلمهم بالفتح ليلاً وتم الفتح نهاراً كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، فبات الصحابة ليلتهم كلهم يرجو أن يكون هو الذي يُعطى الراية لسبب عظيم وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام شهد لهذا الذي يُعطى الراية بهذه الشهادة المباركة ((يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ﷺ)) ، ولما أصبحوا غدوا مبكرين إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كلٌّ يبرز نفسه ويُظهر نفسه ويتمنى أن يكون هو الذي يُعطى الراية ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((أين علي بن أبي طالب ؟)) فقالوا يا رسول الله يشتكي عينيه ، حتى إن شكواه ﷺ من عينيه تسبب في عدم رؤيته الطريق تماماً ، فقال ((اتنوني بعلي)) ، فبعث سلمة بن الأكوع - وكان رضي الله عنه مشهور بين الصحابة بأنه عداء وسريع في الجري - قال كما جاء في صحيح مسلم "فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقْوَدُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ" جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام يقوده لأنه لا يرى الطريق من شدة الرمد الذي أصاب عينيه ﷺ ، فبصق عليه الصلاة والسلام في عينيه فذهب ما بها من رمد وكأنه لم يُصب ، ولم يشتكي بعدها عينيه ﷺ ، وأعطاه عليه الصلاة والسلام الراية وفتح الله ﷺ على يديه ، وكان قتل هذا اليهودي الطاغية الظالم على يد علي بن أبي طالب كما

جاء في صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع ، وكان حصل أن هذا اليهودي - مرحب - خرج من الحصن وطلب المبارزة وكان رجل معروف بقوته ، فتقدم له عامر وهو عم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وبارزه ، فضرب مرحب بسيفه فردّه بترسٍ معه وأهوى رضي الله عنه بسيفه لأنه كان قريباً منه ليضرب أسفله بالسيف ، وكان سيفه قصيراً ، فارتد سيف عامر رضي الله عنه عليه فضرب عين ركبته فأصاب نفسه بالسيف ضربة كانت قاتلة فمات من تلك الضربة ، ثم نادى مرحب هذا من يبارز فتقدم علي رضي الله عنه وضربه على هامة رأسه ففلق رأسه فمات في مكانه .

وهنا ننتبه لفائدة عظيمة ؛ لما رجعت تلك الضربة من سيف عامر على نفسه ومات من تلك الضربة خطأً - وفي القرآن ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] لأن قتل الإنسان نفسه محرم - قال بعض الصحابة : "إن عامر بطل عمله " باعتبار أنه قتل نفسه ، ومن الموافقات العجيبة أن في الغزوة نفسها - غزوة خيبر - كان هناك رجل أبلى في تلك الغزوة بلأء فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هو من أهل النار ، فتبعه بعض الصحابة فأصيب ذلك الرجل بإصابة فلم يحتملها فوضع سيف نفسه في نحره فاتكأ عليه وقتل نفسه ، فجاء الرجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : " أشهد أنك رسول الله ، الرجل الذي قلت إنه في النار قتل نفسه " ، فعامر رضي الله عنه لما رجعت عليه تلك الضربة قال بعض الصحابة : "إن عامر بطل عمله " ، فجاء يقول سلمة إلى النبي عليه الصلاة والسلام يكي على عمه وقال يا رسول الله إن الصحابة يقولون إن عامر بطل عمله . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ - أَي أَخْطَأَ - بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ)) .

وهذا الذي حصل من عامر هو من قبيل الخطأ . لكن هذا يستفاد منه فائدة عظيمة : أن الصحابة رضي الله عنهم متقَرِّرون عندهم أن قتل النفس ولو في ساحة القتال مبطل للأعمال ومن الكبائر ، وكون الإنسان يأتي ويقتل نفسه في وسط الأعداء ولو كان قتله لنفسه يسبب نكايَةً في

العدو هذا في غاية الخطورة ومن كبائر الذنوب ، وبهذا يُعلم أيضاً خطأ ما يسمى بالتفجير ، عندما يأتي شخص ويفجر بنفسه ويقتل نفسه عمداً في سبيل أن يسبب نكابة في الأعداء ؛ هذا إذا كان في صف الكفار ، فكيف - والعياذ بالله - بمن يتجرأ ويأتي ويفجّر نفسه ويقتل نفسه بين المسلمين !! ولو فقه الناس سيرة الصحابة وهديمهم وفهمهم لدين الله ﷻ وحقيقة الجهاد وطريقته ومسلكه الذي كانوا عليه لم يقع هؤلاء وأمثالهم في مثل هذا المنزلات الخطيرة التي يظنونها أنها ضربٌ من الجهاد ونوع من النصرة لدين الله ، وهي من الخطأ البين والضلال الواضح .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((فحاصرها حصناً حصناً يفتحها الله عليه ويُغَنِّمَهُ)) ؛ وأيضاً جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه لما دخل قال : ((اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبْتُ خَيْبَرُ - تلك الحصون المنيعه والقوة والغنى !! - إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} [الصفحات: ١٧٧])) ، ومنَّ الله ﷻ على النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الفتح العظيم ، حتى استكمل حصون خيبر يفتحها حصناً حصناً .

قال : ((وَخَمْسُهَا)) ؛ التخميس جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة الحشر قال الله ﷻ : ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ .

((وقسم نصفها بين المسلمين ، وكان جملتهم من حضر الحديبية فقط)) ؛ وعددهم كما عرفنا في الأقرب من أقوال أهل العلم ألف وأربعمائة .

((وأرصد النصف الآخر لمصالحه ولما ينوبه من أمر المسلمين)) ؛ فحصل الصحابة ﷺ مغام كثيرة وخيراً عظيماً من الله ﷻ عليهم به في هذه الغزوة .

قال المصنف رحمه الله : ((واستعمل اليهود الذين كانوا فيها بعدما سألوا ذلك عوضاً عما كان صالحهم عليه من الجلاء على أن يعملوها ولرسول الله ﷺ النصف مما يخرج منها من ثمر أو زرع)) ؛ يعني أبقاهم عليه الصلاة والسلام في تلك الأماكن عملاً فيها ، يعملون ويكون مقابل العمل : لهم نصف الثمر ، ونصفه للنبي عليه الصلاة والسلام وللصحابه رضي الله عنهم ، وكانت مليئة وغنية بالنخيل والزروع والثمار التي غنمها الله ﷻ للمؤمنين .

قال : ((وقد اصطفى ﷺ من غنائمها صفية بنت حيي بن أخطب لنفسه)) ؛ وعرفنا أن والدها حيي ابن أخطب وهو من رؤوس اليهود وأكابر مجرميهم قُتل في قريظة ، لأنه ألب بني قريظة على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ووعدهم إذا انصرف المشركون أو انسحب المشركون أن يدخل معهم في حصونهم ، ودخل فعلاً وقُتل مع من قُتل من يهود بني قريظة ، وكانت صفية تحت كنانة بن أبي الحقيق وقُتل في فتح خيبر ، ولما طهرت رضي الله عنها وأرضاها تزوجها النبي عليه الصلاة والسلام وبني بها في الطريق فكانت أمّاً للمؤمنين رضي الله عنها وأرضاها .

قال : ((فأعتقها وتزوجها وبني بها في طريق المدينة بعدما حلت له)) والحديث بهذا مخرج في الصحيحين .

قال رحمه الله :

[وقد أهدت إليه امرأة من يهود خيبر - وهي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلية مسمومة ، فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع أنه مسموم ، فترك الأكل ودعا لليهودية فاستخبرها : أسممت هذه الشاة ؟ فقالت : نعم ، فقال : ما أردت إلى ذلك ؟ فقالت : أردتُ إن كنتَ نبياً لم يضرك ، وإن كنتَ غيره استرحنا منك ، فعفا

عنها ﷺ . وقيل : إن بشر بن البراء بن معرور كان ممن أكل منها فمات ، فقتلها به .
وقد روى ذلك أبو داود مرسلاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف] .

قال رحمه الله : ((وقد أهدت إليه امرأة من يهود خيبر . وهي زينب بنت الحارث امرأة
سلام ابن مشكم . شاة مصلية مسمومة)) ؛ سمّت تلك الشاة وقدمتها بكاملها مصلية -
أي مشوية على النار - إلى النبي عليه الصلاة والسلام هدية له ، وكانت قبل ذلك سألت
عن أحب اللحم إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقيل إنه يحب الذراع ، فكثفت من كمية
السم في الذراع .

((فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع أنه مسموم ، فترك الأكل)) ؛ لما وُضعت الشاة
بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام أخذ منها نخشة ولاكها بفمه ولقظها ، وجاء في الحديث
أن الذراع أخبره أنه مسموم وهذا من آيات ودلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

((ودعا باليهودية فاستخبرها)) ؛ استدعى تلك المرأة وسألها .

((أسممت هذه الشاة ؟ فقالت : نعم - اعترفت - فقال : ما أردت إلى ذلك ؟)) ؛
يعني ما السبب الذي دفعك إلى وضع السم في هذه الشاة ؟

((فقالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن كنت غيره استرحنا منك ، فعفا عنها))
؛ وهذا العفو كان في أول الأمر ، لما سألها عن هذا الأمر وأقرت وسألها عن السبب وذكرته
عفا عنها صلوات الله وسلامه عليه ، ((وقيل : إن بشر بن البراء بن معرور كان ممن أكل
منها فمات ، فقتلها به)) ؛ في أول الأمر عفا عنها لكن لما كان بشر ابن البراء ابن معرور
ممن أكل منها فمات من سم تلك الشاة قتلها لقتلها لهذا الصحابي ﷺ ، وبهذا تجتمع

النصوص التي في بعضها أنه عفا وفي بعضها أنه قتل تلك المرأة ، فيكون العفو حصل أولاً ثم القتل حصل بعد أن علم ﷺ أن هذا الصحابي رضي الله عنه مات مسموماً بسُم تلك الشاة .

ولم يزل أثر هذا السم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يتلعه وإنما لأكه قليلاً في فمه ولفظه ، جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ : ((يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِحَيْبَر)) .

قال ابن كثير : ((وقد روى ذلك أبو داود مرسلاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف))

قال رحمه الله :

[وقدم على النبي ﷺ في غزوة خيبر بعد فراغهم من القتال جعفر بن أبي طالب وأصحابه ممن بقي مهاجراً بأرض الحبشة ، وصحبتهم أبو موسى الأشعري في جماعة من الأشعريين يزيدون على السبعين . وقدم عليه أبو هريرة وآخرون - رضي الله عنهم أجمعين - ، فأعطاهم ﷺ من المغنم كما أراد الله ﷻ ، وقد قال ﷺ لجعفر : " لا أدري بأيهما أنا أسر ، أفتح خيبر أم بقدوم جعفر " ؟ ، ولما قدم عليه قام وقبّل ما بين عينيه . وقد استشهد بخيبر من المسلمين نحو عشرين رجلاً رضي الله عنهم جميعهم] .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((وقدم على النبي ﷺ في غزوة خيبر بعد فراغهم من القتال جعفر بن أبي طالب وأصحابه ممن بقي مهاجراً بأرض الحبشة ، وصحبتهم أبو موسى الأشعري في جماعة من الأشعريين يزيدون على السبعين)) ؛ وجعفر هو ابن عم النبي ﷺ

وأخ شقيق لعلي بن أبي طالب وهو أسن من علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وفرح النبي عليه الصلاة والسلام بمقدمه فرحاً عظيماً .

((وقدِم أيضا عليه أبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم أجمعين فأعطاهم من المغام كما أراد الله ﷻ))؛ وإعطاء هؤلاء من المغام فيما يتعلق بأبي موسى الأشعري والجماعة الذين جاؤوا معه حديثهم في الصحيحين من حديث أبي موسى ، قال جعفر : ((فَوَافَقَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ حَيْبَرَ، فَأُسْهِمَ لَنَا ، أَوْ قَالَ: فَأَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لِأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ حَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلَّا أَصْحَابَ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ هُمْ مَعَهُمْ)) . وأبو هريرة جاء الحديث في إعطاء النبي ﷺ له في مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((أَتَيْنَا حَيْبَرَ وَقَدْ افْتَتَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْبَرَ ، فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ فَأَشْرَكُونَا فِي سِهَامِهِمْ)) ؛ استأذن النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين فأذنوا فأعطى أبا هريرة رضي الله عنه .

قال المصنف رحمه الله : ((وقد قال ﷺ لجعفر - لما قدِم - لا أدري بأيهما أنا أسر)) ؛ أي أفرح وأبتهج .

((أبفتح خير أم بقدوم جعفر؟)) ؛ تنبيهاً بهذه الكلمة أن كل من الأمرين مفرح للنبي عليه الصلاة والسلام فرحاً شديداً .

((ولما قدِم عليه قام وقَبِل ما بين عينيه)) ؛ والحديث بذلك ثابت في معجم الطبراني وإسناده جيد وأورده العلامة الألباني رحمه الله تعالى في سلسلته الصحيحة . وجاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لجعفر : ((أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي)) وهذا ثناء عاطر من النبي عليه الصلاة والسلام لابن عمه جعفر بن أبي طالب ، وسيأتي قريباً أنه رضي الله عنه استشهد في غزوة مؤتة .

قال : ((وقد استشهد بخير من المسلمين نحو عشرين رجلاً رضي الله عنهم جميعهم)) .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (فتح فذك) : ولما بلغ أهل فذك ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر ، بعثوا إليه يطلبون منه الصلح فأجابهم ، فكانت مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فوضعها ﷺ حيث أراد الله ﷻ ولم يقسمها] .

ثم عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل في فتح فذك ، وفذك : منطقة معروفة بكثرة النخيل والزروع والأشجار وهي تقع شرق خيبر وهي تُعرف فيما بعد بالحائط .

قال ابن كثير : ((ولما بلغ أهل فذك ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر بعثوا إليه يطلبون منه الصلح فأجابهم)) ؛ أهل فذك لما علموا ما كان يهود خيبر وما مكّن الله ﷻ للمسلمين والفتح الذي تم لهم ؛ اعتبروا بما كان فصالحوا النبي عليه الصلاة والسلام فأجابهم وصالحهم عليه الصلاة والسلام على النصف من فذك يمثل ما صالح عليه أهل خيبر .

((فكانت مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب)) وهذا يكون للنبي ﷺ خالصاً .

قال : ((فوضعها ﷺ حيث أراد الله ﷻ ولم يقسمها)) .

قال :

[فصل (فتح وادي القرى) : ورجع إلى المدينة على وادي القرى فافتحه ، وقيل : إنه قاتل فيه . فالله أعلم . وفي الصحيحين أن غلاماً لرسول الله ﷺ يدعى مدعماً بينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم غرب فقتله ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة يا رسول الله ، فقال : " كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً "] .

ثم عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل في فتح وادي القرى ، ويقال إن هذا الوادي هو الوادي المعروف بالعلأ ويبعد عن المدينة ثلاثمائة وخمسين كيلو متر تقريباً .

قال : ((ورجع إلى المدينة على وادي القرى فافتحه ، وقيل : إنه قاتل فيه)) ؛ واختلف هل حصل قتال أو لم يحصل قتال ؟ ولهذا قال ابن كثير : ((وقيل إنه قاتل فيه فالله أعلم)) .

قال رحمه الله : ((وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن غلاماً لرسول الله ﷺ يدعى مدعماً بينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ)) ؛ أي يُنزل الرحل .

((إذ جاءه سهم غرب)) ؛ يعني لا يُعرف من رماه ولا من أين وجهته ولا من الرامي .

((فقتله ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة يا رسول الله ، فقال : كلا والذي نفسي بيده إن الشملة)) ؛ الشملة : شيء يوضع على الدابة أو على البهيمة .

فقال ((إن الشملة التي أخذها - وجاء في بعض الروايات يوم خير - من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً)) ؛ ولهذا جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في التحذير من الغلول وأنَّ ﴿ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١] ، وجاء في

صحيح البخاري أن من غل يأتي بما غل يحمله على عاتقه يوم القيامة، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : ((قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، قَالَ: " لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَعَاءٌ ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُعَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ)) .

وهنا في هذا الحديث يقول : ((إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلْ عَلَيْهِ نَارًا)) كانت هذه موعظة للناس ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ به غيره ، جاء في بقية الحديث في الصحيح : ((جَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشْرَاكِ أَوْ بِشْرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ؟»)) ؛ تحذير من الغلول وبيان لخطورته العظيمة . فهذا رجل شارك في القتال ومع النبي عليه الصلاة والسلام ، ولاحظوا أيضاً يعمل في خدمة النبي ﷺ ولما مات مات أثناء خدمته للنبي عليه الصلاة والسلام ، ثم الصحابة يستبشرون لهذا الرجل أنه مات على هذه الحال وقالوا هنئاً له شهيد في سبيل الله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لتشتعل عليه نارا)) ؛ فهذا يجعل العاقل يعتبر ويتعظ ويحذر من الغلول ولو كان قضياً من أراك ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والمظالم تُرد إلى أهلها يوم القيامة ، ويأتي أناس يوم القيامة مفاليس من الحسنات مع أنهم كانوا أهل صلاة وأهل صيام وأهل صدقات وأهل أعمال من البر عديدة كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟)) قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ

هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ فالمظالم والظلم ظلمات يوم القيامة ولو كان قدرا يسيرا ، ولو كان شملة ، ولو كان شراكا ، ولو كان قضيباً من أراك، كل ذلك في غاية الخطورة ، والواجب على العاقل أن يتخلص من المظالم في هذا اليوم الذي فيه الدرهم والدينار قبل أن يقدم يوم القيامة ولا درهم ولا دينار . قال عليه الصلاة والسلام : ((يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ الْعِبَادُ عُرَاءَ غُرْلًا بُهْمًا قَالَ قُلْنَا وَمَا بُهْمًا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبِ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاءَ غُرْلًا بُهْمًا قَالَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) يعني يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِينَ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ فَطُرِحَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

فالشاهد أن مثل هذه النصوص فيها عظة للناس وعبرة ، والعاقل يتدارك نفسه ويحاسبها قبل أن يحاسبه الله ﷻ ويزن أعماله قبل أن توزن ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

كذلك مما جاء في كتب السير أن يهود تيماء لما بلغهم بهذا الذي حصل أولاً لأهل خيبر ثم فتح فدك ثم فتح وادي القرى لم يُبدوا أي مقاومة بل بعثوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يعرضون عليه الصلح . فقبل منهم ﷺ .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل ٥ (عمرة القضاء) : ولما رجع ﷺ إلى المدينة أقام بها إلى شهر ذي القعدة فخرج فيه معتمراً عمرة القضاء التي قاضى قريشاً عليها . ومنهم من يجعلها قضاءً عن عمرة الحديبية حيث صُد . ومنهم من يقول عمرة القصاص . والكل صحيح . فسار حتى بلغ مكة فاعتمر وطاف بالبيت وتحلّل من عمرته ، وتزوج بعد إحلاله ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وتمت الثلاثة الأيام ، فبعث إليه المشركون علياً ﷺ يقولون له : اخرج من بلدنا . " فقال : وما عليهم لو بنيت ميمونة عندهم ؟ فأبو عليه ذلك ، وقد كانوا خرجوا من مكة حين قدّمها ﷺ عداوة وبغضاً له . فخرج عليه الصلاة والسلام فبنى ميمونة بسرف ورجع إلى المدينة مؤيداً منصوراً] .

ثم عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل في ذكر عمرة القضاء ، وكانت هذه العمرة في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة ، يعني بعد إتمام سنة من العمرة التي صد المشركون النبي ﷺ عنها واتفق معهم على أن يعتمر من قابل ، ولهذا سميت هذه العمرة « عمرة القضاء » .

قال : ((ولما رجع ﷺ إلى المدينة أقام بها إلى شهر ذي القعدة فخرج فيه معتمراً عمرة القضاء التي قاضى قريشاً عليها . ومنهم من يجعلها قضاءً من عمرة الحديبية حيث صُد عنها)) ؛ قضاء : أي عن العمرة التي صُد عنها ، وتسمى عمرة القضاء لأنه قاضى المشركين عليها فيما كان بينه وبينهم من اتفاق .

((ومنهم من يقول عمرة القصاص ، والكل صحيح)) ؛ يعني هذا تنوع في العبارة ولكل من هذه الألفاظ مدلول واضح مما كان ووقع في صلح الحديبية . وقيل إن الذين شهدوا هذه العمرة ألفان سوى النساء والذرية .

قال : ((فسار حتى بلغ مكة فاعتمر وطاف بالبيت وتحلّل من عمرته ، وتزوج بعد إحلاله ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين . وتمت الثلاثة الأيام)) ؛ ويقال إن المشركين مما قام

في قلوبهم من العداوة والبغضة للرسول عليه الصلاة والسلام لما جاء وقت الدخول خرجوا من مكة بزعمٍ منهم لا يرغبون أن يسكنوه أو يقيموا معه في مكان هو فيه ، فخرجوا من مكة وبقوا على رؤوس الجبال يراقبونه من بُعد ، فأدى عليه الصلاة والسلام العمرة وتحلل منها وتزوج من ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين ، ولما تمت الثلاثة أيام - لأنهم كانوا اتفقوا أنه لا يقيم في مكة أكثر من ثلاثة أيام - بعثوا إليه علي بن أبي طالب ، جاء في الصحيحين أنهم قالوا لعلّي : ((قُلْ لِّصَاحِبِكَ اخْرُجْ عَنَّا فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ)) .

((فقال - أي النبي عليه الصلاة والسلام - وما عليهم لو بنيت بميمونة عندهم ؟)) ؛ وهذا رواه موسى ابن عقبة عن الزهري مرسلًا بلفظ : ((إني قد نكحت فيكم امرأة فنأكل وتأكلون معنا)) ، فقالوا : نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا ، ((فأبو عليه ذلك)) .

يقول ابن كثير : ((وقد كانوا خرجوا من مكة حين قدمها ﷺ عداوة وبغضاً له)) ؛ يعني أظهروا هذه العداوة والبغضاء للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بأنهم لم يبقوا في مكة وإنما خرجوا منها .

قال : ((فخرج عليه الصلاة والسلام فبنى بميمونة بسرف ورجع إلى المدينة مؤيداً منصوراً)) ؛ قوله "فبنى بميمونة" أي : بعدما تحلل صلوات الله وسلامه عليه كما في حديث ميمونة نفسها رضي الله عنها وهو مخرّج في صحيح مسلم . وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما : " إن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم " وحديثه في الصحيحين فهو وهم كما نبّه على ذلك جماعة من أهل العلم منهم الإمام أحمد وسعيد بن المسيب وغيرهم قالوا : ((وهم ابن عباس)) ، يعني عندما قال أن النبي عليه الصلاة والسلام تزوج بميمونة وهو مُحْرَم ، والصحيح ما ثبت عنها هي رضي الله عنها في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام بنى بها وهو حلال صلوات الله وسلامه عليه .

جاء في الصحيح أن طفلةً لحقت بالنبي عليه الصلاة والسلام عند خروجه ﷺ من مكة - وهي عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، ووالدها حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام استشهد في أحد - فأخذها علي ووضعها عند فاطمة ، فاختصم فيها عدد من الصحابة كل يريد أن تكون عنده وكلٌ يذكر المبرر في ذلك ، فاختصم فيها زيد ابن حارثة لأخوته لحمزة بالمؤاخاة ، وجعفر بن أبي طالب وكانت تحتها خالتها ، وعلي بن أبي طالب ؛ فقضى بها النبي ﷺ أن تكون عند خالتها وقال عليه الصلاة والسلام في ذلك الموضع : ((الخالة بمنزلة الوالدة)) .

وقوله عليه الصلاة والسلام ((الخالة بمنزلة الوالدة)) هذا يستفاد منه فائدة عظيمة في باب البر والصلة ؛ ينبغي على المسلم أن يعلم المكانة العظيمة التي جعلها الإسلام للخالة ، والخالة هي أخت الأم ، فمكانتها بمكانة الوالدة ومنزلتها بمنزلة الوالدة ، فهذا يستوجب على المسلم أن يعتني في باب البر والصلة بالخالة عنايةً عظيمة لما لها من منزلة عالية ومكانة رفيعة .